أماندا بروبست
2008/12/16

تقع المملكة المغربية في شمال إفريقيا على ساحل المحيط الأطلسي مفصل من أوروبا بخمسة عشر كم وبسبب ذلك كانت وما زالت مصلب الطرق بين شمال إفريقيا وغرب أوروبا وشرق المحيط الأطلسي ومن ناحية التأريخ أيضاً هي مصلب الطرق بين الثقافة الأوروبية والإفريقية والعربية. في أراضيها جمال أوروبا وصحراء إفريقيا الجنوبية وأمواج البحر الأبيض المتوسط وجبال شمال إفريقيا. في ثقافتها نجد آثار الأسلام وتصوف الغناوة وأناقة فرنسا وتراث الأمازيغ. تصل الأمواج الزرقاء بشاطئ طنجا المسافرين الهسبانيين وأموالهم السياحية وتذهب الطائرات بالكلمات والظواهر الفرنسية الجديدة من أوروبا إلى المطارات المغربية. يثرثر الأمريكيون يقرأون كتب السياحة ومعهم الحقائب الضخمة. يناقش المغربيون المسنون الأخبار العالمية في المقاهي وعلى الموائد العتيقة جرائد باللغات المتنوعة والمأكولات من القارات المختلفة وفي نفس الوقت الجيل الجديد يقبلون على التسوق في الدكاكين يبحثون عن الموضى. المملكة المغربية تضم مفارقات وتحديات وتغيرات كثيرة ولكنها تضم أيضاً طابع فريد وصفات إيجابية وتفاصيل خاصة.

عاصمة المملكة الحديثة مدينة الرباط. أصبحت الرباط العاصمة في أوائل القرن الأخير عندما انتقل الحاكم الفرنسي من فاس إلى الرباط بسبب العنف والخطر في العاصمة الأولى. بعد الاستقلال عين المالك المغربي محمد الخامس الرباط عاصمته. تقع هذه المدينة في شمال البلد بعيد عن مدينة الدار البيضاء، أو "كازا"، بساعتين في القطار. تتصف الرباط بمدينتها القديمة والأن من اللازم أن أذكر أنة في المغرب تشير كلمة "مدينة" إلى الجزء من المدينة كنعرفها التي فيها المباني القديمة جداً والأسواق الشعبية والفنادق الرخيصة. تحيط المدينة جدار قديمة وخارج المدينة توجد المدينة الحالية يسميها الأوروبيون ال"ville nouvelle". توجد في الرباط مدينة بهذا المعنى والسفارات الدولية والبرلمان الوطني وإطار

الحكومة الإداري. بعيد عن الرباط بخمس ساعات على السكات الحديدية تقع مدينة طنجا المشهورة التي تشتهر بتأريخها الفني الدولي. من الشاطئ من الممكن أن يرى الزائر هسبانيا ويمشيَ قريب من اكبر مرسى في المغرب ويتذكرَ الفترة الذهبية التأريخية عندما عاش في طنجا الكتّاب والفنانون المشهورون وأبرز منهم ويلام بوروز وبول بولز. أما فاس فهي تقع في الجنوب في منطقة جبلية. يرجع أصل فاس إلى العسور الوسطى وعلى باب الفتوح أكبر باب إلى المدينة إشارة باللغتين العربية والفرنسية تقول "فاس 1200 عام". فيها عدد كبير من الأسواق والجامعة المشهور اسمها القرويين ومدرسة أبو عنان الذي يشتهر بأنّها تضم المسجد الوحيد حيث دخول الغير مسلمين ليس ممنوع في القوانين.

قررت أن أزور المملكة المغربية في هذا الصيف لأنني لم أزرها من قبل. بصفة عامة لا أريد أن أسافر كزائر عادي فلذلك تركت بيتي في دولة قطر قبل عيد الأضحى بأربع أيام أنوي الأبقاء للعيد مع صديقتي الأمريكية التي تعيش في الرباط والأسرة التي تعيش صديقتي معها. وضعت في حقيبتي ملابس للجو البارد أفكر في اللغة: أليست العامية المغربية بالنسبة للسمعة مختلفة تماماً من العربية؟ هل سيفهمني الناس هناك؟ هل سأفهم الناس هناك؟ لا أتكلم اللغة الفرنسية فكيف سأتكلم مع المغربيين؟ لا باس.

وصلت إلى مطار محمد الخامس الدولي في الدار البيضاء بعد رحلة امتدت كل الليل. مباشرةً وجدت مشاكل لغوية! حاولت أن أتصل صديقتي "كادي" مرة بعد مرة ولكن الرقم الذي أعطتني كادي لم يكفي ولم يشتغل فسألت ست في الطائرة عن رقم البلد واجابت لي أنّه ليس موجوداً. لا أصدق! سألت أربعة أفراد بعد ذلك طالما الإجابة. أخيراً وجدت موظفة لطيفة في مكتب المعلومات وكانت لطيفة إلى حد أنّها اتصلت كادي من أجلي تستجدم هاتفها الشخصية. كانت تجريبتي هذه الدليل الأول أنّ القصة اللغوية في المملكة كانت ستكون صعبة.

في حياتي قابلت أحسن وأغرب وأفرد أشخاص وأنا أسافر. في قطار من كازا إلى الرباط قابلت دكتورا متخصصا في العلوم الصوتية وأخذنا نناقش هذه الدراسة معاً. عندما كنا نتكلم عن العالم اللغوي رمى ولد حجرة في وجه القطار فكسرت النافذة. قبل أن عترفت ما حدث الكلمة الوحيدة في ذهني كانت "ارهابي!" أخطر شيئ في المملكة المغربية ليس الأرهابي وإنما هو الولد وفي يده الحجرة! طالما السخرية، الشباك المكسور يدل على المشاكل الثابتة في الوطن النامي؛ تدمير جزء القطار جريمة طبعاً ولكن كيف تغير الحكومة الحالة عندما الولد يكسر النافذة سريعاً بدون عقاب...ولكن كيف تجد الحكومة هذا الولد وكيف تعرف أي ولد من الأولاد هو الذي فعل الجريمة؟

وصلت إلى الرباط ووجدت كادي تنتظرني في المحطة. ذهبنا إلى المدينة مباشرةً واخترنا غرفة في فندق من الفنادق الصغيرة الرخيصة فيها. حاولت اللغة مرة ثانية والحمد لله صاحب الفندق فهم كلامي بالفصحى فشرحت أنني أعرف الفصحى والعامية المصرية إلى حدٍ ما ورد لي الصاحب بالعامية المغربية ولم أفعمه فضحك. بقيت ثلاثة أيام قبل العيد في الرباط أستكشف المدينة وأتناول وجبات أرخص من الوجبات القطرية بكثير. علمت شيئاً عن الأسلام في المغرب أيضاً، أي أنّة في المغرب الأسلام يضم جوانب من التصوف والأديان غير الأسلام. واحد من الظواهر هو موسيقى الغناوة التقليدي. أصل الغناوة يرجع إلى التقاليد الإفريقية من الجنوب. يهتم المغربيون اهتماماً قوياً بالجان واخراجهم من البشر والمباني. وجدنا أنا وكادي وصديقها عسام مغني الغناوة يجلس في الشارع واستمعنا إليه يغني أغنية من هذا الموسيقى. أصوات الغناوة مترددة حتى شعرت بأنّ الأشباح كانت تحيطنا، تحيطني وكادي وعسام وهذا المطرب في عالم الظلال وبعد نهاية الأغنية رجعنا إلى العالم العادي، عالم الشمس، العالم اليومي بدون الجان والأشباح.

اليوم قبل يوم العيد كنا نمشي أنا وكادي في المدينة أقرب من الرباط اسمها سلا. جئنا إلى مهرجان في سلا يحتفل العيد. لم أشاهد فنانين مثل هؤلاء الفنانين في حياتي؛ كان أشخاص يلعبون الطبول وأشخاص أخيرون يرقصون في إزياء الخروف. الموسيقى من الطبول لم يشبه الغناوة من قبل ولكن كانت الحالة عاطفية في نفس الأسلوب. حاولت أن أتخيل الناس في قطر يحتفلون العيد في هذه الطريقة ولكن لم يمكنني!

يوم العيد كان أخير يوم في الرباط لي. ذهبنا إلى بيت صديق كادي في سيدي موسى في سلا. في طريق رأينا رؤساء الخروف على نار خارج في الشارع وأمامها الرجال يديرون العملية بالحماسة. يقع بيت أسرة عسام على شاطئ جميل جداً وكنت أريد أن أعرف كيف لم يشتري هذا الشاطئ واحد من الأميراتيين الذين الآن يبنون مشاريع ضخمة في كل العالم حتى في المغرب. تجربية الوجبة العيد مع اسرة مغربية هي تجربية أصيلة في هذا البلد. أكلنا الكبدة وكلما داخل الحيوان إثناء نشرب الشاي المغربي يتصف بالنعنع والسكر. موضوع المناقشة كان مرة ثانية اللغة—أخت عسام تحب الأفلام المصرية وكانت كلمتني بالعامية المصرية وترجمت لي كلما قالت لي أم عسام التي لا تتكلم بالفصحى. علمت أيضاً بعض الكلمات المغربية ولمن حتى تركت المغرب لم أفهم أي كلام سمعته بالعامية المغربية. بعد الغداء انتقلنا من بيت عسام وأسرته إلى بيت عائلة تعيش معها كادي في حي آخر في سلا. أكلنا أكثر من الكبدة حتى كان من اللازم أن نقول إنّنا لا يمكننا أن نأكل أكثر لأننا في أمريكا لا نأكل هذه الأجزاء من الحيوان كثيراً. رجعنا إلى الرباط بالطاكسي وبتّ الليلة في الفندق.

المدينة القادمة في الخطوط كانت طنجا وسافرت إليها بنفسي. ذهب القطار من محطة الرباط إلى طنجا متأخراً بساعتين؛ الحمد لله كادي التي كانت ستكون في الرباط إثناء رحلتي إلى طنجا تنظرت معي حتى وصل القطار. قابلت شخصية فريدة كالعادي في القطار، وكان رحالة مثلي من هسبانيا لا يتكلم أي لغة إلا الهسبانية والإنجليزية. تكلمنا باللغتين، الهسبانية والإنجليزية، عن القضايا العالمية مثل الأزمة الاقتصادية وبراك أوباما والسفر بشكل عام. الغريب والعجيب أنّ في كل العالم كل الناس يناقشون نفس

القضايا. نزل زميلي القطار إلى قرية صغيرة قبل طنجا وأنا بقيت في القطار حتى نهاية السكة. أولاً في طنجا وجدت فندقاً في المدينة الجديدة فقبل وصولي قد قررت أن أجد فندقاً ثلاث نجوم لأنني كنت في فندق بدون نجوم قبل ذلك في الرباط! اخترت فندق ريمبرانت في الشارع الكبير في قلب المدينة الجديدة اسمه طبعاً محمد الخامس. مشيت من الفندق إلى المدينة القديمة ولكن كثير من الدكاكين لم تفتح بسبب العيد. احببت المباني الأوروبية والشواريع النطيفة والمناظر الجميلة. طنجا أكبر مرسى في المملكة فقضيت وقتاً طويلاً أشاهد المراكب والناس يذهبون من وإلى كل مكان. اشتركت في تقليد غير خاص للمغرب عندما جلست في مقهى أشرب الشاي المقربي وأقرأ الجريدة طوال الليل. اليوم الثاني في طنجا فعلت نفس الشيئ حتى مشيت إلى المحطة ورجعت إلى الرباط.

كان يوم الجمعة آخر يوم رحلتي. قررت أن أسافر مع كادي وعسام إلى فاس بالقطار مرة ثانية. المناظر من القطار كانت جميلة وواسة ورائعة فلم أتعب من السفر ولكن عندما وصلنا إلى فاس أصبح المطر أشد وأشد والجو أبرد وأبرد. كثير من الأماكن في المدينة القديمة كانت غير مفتوحة فذهبنا إلى مدرسة أبو عنان المذكورة فوق وصورتها في المطر وأكلنا الغداء ورجعنا إلى الرباط. من اللازم أن لا يسافر زائر فاس في أسبوع العيد!

يبدو أن الرحلة بالطائرة من المغرب إلى أبو ظابي أطول والعكس ولكنني أعرف أن هذا ليس صحيحاً. في الرحلة الطويلة فكرت كثيراً عن الزيارة التي أكملتها. في أسبوع واحد علمت واستكشفت وفعلت أكثر مما كنت أفكر ممكناً. لو كان عندي شهر في هذا البلد، لفعلت ماذا؟ المملكة المغربية فريدة في العالم كمصلب الطرق في الحقيقة وفي المجاز. إن شاء الله كلكم ستسافرون إليها في المستقبل.